مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد: 06/ العـدد: 01/ جوان (2022)، ص642/634

نقد الثقافة- قراءة في أطروحات مالك بن نبي الفكرية

Culture Criticism - Reading in the intellectual treatises of Malik bin Nabi

د/مجاهدي صباح*
sabah.medjahdi@univ-relizane.dz
جامعة أحمد زبانة-غليزان
(الجزائر)

تكوك تواتي
touatitekouk62@gmail.com
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/01/24 تاريخ القبول: 2022/04/12 تاريخ النشر: 2022/06/02

ملخص:

إن كان سلامة موسى هو أول من قام بترجمة مفهوم الثقافة إلى اللغة العربية، وأعطاه بعدا نخبويا ومعاني تدل على التطور والتقدم والتحضر ، فان مالك بن نبي سعى الى تحليل مفهوم الثقافة تحليلا نفسيا بما تقتضيه من أبعاد بنيوية سيكولوجية، وما تؤديه من وظائف اجتماعية وأخلاقية، وأبرز ما كتب في هذا الصدد مؤلفه المشهور "مشكلة الثقافة"، إذ شرح كل الآفات والأهوال المتعلقة بهذه المشكلة (الأزمة)، التي يرزح تحتها مسلم ما بعد الحضارة ، الذي راح يبني اعتقادا قويا في أفكار ميّتة نقلها من ماضيه كما هي، معتقدا بأنّ ما كان سببا في نهوض السلف سيكون سببا وجيها وقويا في تجاوزه لمحنه وخيباته. في حين يرى مالك بن نبي أنّ الإرادة والإقلاع والتمكين الحضاري، لا يكونان الا من خلال الإعداد لجوّ ثقافي يحترم خصوصية المجتمع العربي الإسلامي أولا، ويعبّر عن انتمائه الإفريقي والأسيوي والمتوسطي ثانيا، وعليه وفي هذا الإطار تأتي هذه الورقة البحثية لمناقشة الإرهاصات الأولى التي أفضت إلى تأثيث محكم لنقد ثقافي عربي مؤسس على مبدأ احترام الخصوصية، وممهّد لنقد ثقافي عربي عالمي.

كلمات مفتاحية: نقد؛ ثقافي؛ مشروع فكري؛ فكر عربي؛وعي ثقافي

Abstract:

If Salama Moussa was the first to translate the concept of culture into Arabic, and gave it an elitist dimension that indicates development, progress and urbanization, then Malik Bennabi sought to analyze the concept of culture in a psychological analysis, with its structural and psychological dimensions, and the social and moral functions it performs. And the most prominent of what he wrote in this regard is his famous author, The Problem of Culture, as he explained all the evils and horrors related to this problem (the crisis), and Malik Bennabi saw that the will, the take-off and the civilized empowerment can only be achieved through preparing a cultural atmosphere that respects the privacy of the Arab

*المؤلف المرسل

Islamic community first. Secondly, it expresses its African, Asian and Mediterranean affiliation, and in this context, this research paper comes to discuss the first indications that led to an elaborate furnishing of Arab cultural criticism based on the principle of respect for privacy, and paving the way for international Arab cultural criticism.
Keywords: *criticism; cultural; intellectual project; Arab thought; cultural awarenes*

. مقدمة:

إن الكتابة عن المفكر العربي مالك بن نبيّ كتابة شيّقة و ممتعة، وشاقة في الآن نفسه، ذلك لأن الغوص في صرح الأفكار الذي رفع ابن نبي قواعده على دعامتي التحليل والنقد، يستدعيان ممارسة مسئولة في الإيفاء بهذه المقاربة الجديدة التي خاض فيها عن علم و وعي وإدراك ونظرة واسعة الآفاق.

ومن ثمّ، فإن حقيقة النقد في فكر بن نبي أشد ما يكون الارتباط بقضية التشريح والتشخيص الدقيقين، لمشكلة الأفكار والثقافة في العالم العربي والإسلامي، ولنا أن نلمس تجليات الطرح النقدي البنابيّ من خلال تفكيكه العميق والدقيق لأزمة العالم الإسلامي، والتي تمحورت في مشكلة السقوط الحضاري أو التخلّف الحضاري، الذي تسبّبت فيه تلكم الرؤية القاصرة لعالم الأفكار، والتي اقترنت بصفة خاصة بطريقة استخدام العربي المسلم للوسائل المادية بفاعلية أو عدم فاعلية، هذا فضلا عن العجز الملموس في طرحه لمشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق.

يستند مالك بن نبي وبشكل كبير على الاستدلال، كأداة إجرائية في الكشف عن عاهات وأمراض العقل العربي المسلم، كما نراه دوما يعقد تحليله وتوصيفه على الثنائيات التي يسقط عليها تحليلات خاصة به، متعمّدا في دراسته لها على إقصاء المفاهيم المجردة للمصطلحات التي تتناول جذرها اللغوي، داعيا إلى أن نتعامل مع كل مصطلح في إطاره العام دون تحديد مسبق، وهذا من شأنه أن يعزّز موضوعية الباحث ويساعده للوصول إلى حقيقة المفاهيم، وبالتالي التأكيد على استقلاليتها.

فحين باشر مالك بن نبي مهمة شرح تصوره الفكري للثقافة، وجد نفسه مضطرّا في البداية إلى ضرورة تفكيك العلاقة المفتعلة والملفّقة التي جمعت بين الثقافة والعلم في ثوب واحد، إذ راح يعمل على إبراز الفروقات الكامنة بينهما، باعتبارهما حقيقتان مختلفتان عن بعضهما البعض، ليتسنى له بعد ذلك أمر بيان ملامح الثقافة بشكل واضح ودقيق، حيث يقرّ ابن نبي "أنّ تحديد الثقافة لا أثر له، إلاّ إذا زال **الخلط الخطير** والشائع في العالم الإسلامي، بين ما تفيدانه كلمتا **ثقافة وعلم**"[1] ، وقد زاد هذا الأمر توضيحا، في سياق حديثه عن صورة ضعف المجتمع العربي والإسلامي، والتي أحالها مباشرة، إلى"ضعف الطبقة المثقفة نفسها، في البلاد العربية والإسلامية، أو في بعضها على الأقل" [2] والتي تفننت في صناعة الخطب والأقوال، وخابت في صياغة أفعالٍ للأفكار، فجوهر القضية كما يشخصه ابن نبي مرتبط بقضية الفعالية واللاّفعالية.

لقد استطاع مالك بن نبي أن يستنطق الفرق الحاسم والجليّ بين الثقافة والعلم، عبر تحليله لعناصر الثقافة ومكوّنتها، التي اشتملت على أربعة مكونات أساسية، وهي: أولا: المبدأ الأخلاقي، ثم: الذوق الجمالي، ثم مكونها الثالث: والذي يتمثل في المنطق العلمي، وأخيرا مكوّن التوجيه الفني أو الصناعة[3]

غير أنّ ابن نبي وهو يحسم أمر استقلالية الثقافة عن العلم باحتوائها إيّاه، يضعنا أمام طبقتين من طبقات المجتمع الفاعلين واللّافاعلين؛ بين طبقة المثقفين وطبقة العلماء والمتعلمين، رافعا في هذا التقسيم شأن المثقف، عن شأن العالم والمتعلم، حيث يقول:" ولا شك في أنّ هذا المبدأ، سيزيد في وضوح الخلاف البعيد بين الثقافة والعلم، وبالتالي بين الفرد المثقف، و**مجرد** العالم والمتعلم" [4]؛ فالفرد المثقف من وجهة نظر مالك بن نبي، هو الفرد الذي يتصل بعالم الأفكار، بينما الفرد العالم والمتعلم هو الذي يتصل بعالم الأشياء والوسائل، سواء كان صانع لها أو مستهلك لها،"فالرجل العالم قد يكون عنده إلمام بالمشكلة كفكرة، غير أنه لا يجد في نفسه الدوافع التي تجعله يتصورها عملا، في حين أن الرجل المثقف يرى نفسه مدفوعا بالمبدأ الأخلاقي، الذي يكوّن أساس ثقافته إلى عمليتين: عملية هي مجرد علم، وعملية أخرى فيها تنفيذ وعمل. وبهذا يتضح لنا الخلاف الجوهري الذي يفسر لنا الصورة التي أوردتها شاهدا في صدر هذا الحديث"[5]

. محورية الفكرة الدينية عند مالك بن نبي ونقد العقل العربي الإسلامي:

يتطلع مالك بن نبي إلى قراءة نقدية متفتحة للعقل العربي الإسلامي، يسعى من خلالها إلى إدراك مواطن الضعف والركود، التي جعلت من العقل العربي الإسلامي عقلا معطلا عن تفسير أسباب تراجعاته وقصور أفكاره، التي لا يحسن به حتى طرحها ومعالجتها وتجسيدها، فابن نبي يقول إن المجتمع النامي لا يتميز فقط" بقلّة الوسائل المادية (الأشياء)فحسب، وإنما يتميز بقصور في الأفكار، يتجلى هذا القصور في طريقة استخدامه بفاعلية أو عدم فاعلية للوسائل المادية المتوفرة لديه، مع عجزه عن إيجاد غيرها، كما يتميز بصفة خاصة في طريقة طرحه لمشاكله، أو عدم طرحها على الإطلاق، عندما يتغاضى عن أيّة رغبة عابرة تدعوه إلى دراستها" [6]،وهذه أكبر خيبات العقل العربي وأعظم مآسيه.

لم يتسن لابن نبي الوقوف على أسباب التخلف الفكري والحضاري، والذي كان سببه إنسان ما بعد الموحدين، إلاّ من خلال تشخيصه لجملة الأمراض التي أصابت العقل العربي، والتي أفضت إلى تعطيل صيرورة الحضارة، فكان من جملة تلك الأمراض التي شخصها مالك بن نبي تشخيصا دقيقا: داء التكديس، وداء الهذر الكلام، وداء الوثنية.

لقد كان للفكرة الدينية في منظومة الفكر البنابي أهمية عظمى، وذلك لإدراكه تمام الإدراك بأهمية الدين في استواء الفرد، و في صيرورة التاريخ والمجتمع، غير أنّ الأهمية التي نالها الدين في مشروع مالك بن نبي، لم تقتصر على التجربة الأوروبية فحسب-وإن كانت هي النموذج الأمثل- وإنما استقت معالمها أيضا من التجربة الإصلاحية النهضوية الناجحة في العالم العربي عموما والجزائر خصوصا، هذا إن نظرنا إلى أعمال مالك بن نبي من الناحية الوظيفية العقلانية، أي من الزاوية التي قدم فيها "**ماكس فيبر**" تفسيره للنجاح الباهر الذي حققته ولازالت تحققه الرأسمالية، لأنها ارتبطت

تاريخيا وتشبعت روحيا بالأخلاق البروتستانتية، فهي بتعبير **"سمير أمين"** تشكل سمة العصر، بمظهره العالمي والأحادي.

إن تجربة الرأسمالية التي ابتدأت مع عصر النهضة والتنوير، وبانفجارها الكبير مع الثورة الصناعية التي صدّرتها للعالم بأسره كمثال على التفوق التكنولوجي والصناعي، بفعل ما ضخته الثورة الفرنسية من دماء جديدة في العقل السياسي الذي كان قائما على الإقطاع والاستبداد، هذه الثورة التي كرست للعلمانية تحت شعار: ما كان لله فهو لله، وما كان لقيصر فهو لقيصر، أو الله للفرد والوطن للجميع؛ جعلت الكثير من الانتلجنسيا العربية ترى في هذه المقولات شروحات تفسر بها حالة التخلف والهوان العربي، محملين الديانات الشرقية سبب الانحطاط والتدهور.

وهكذا ناصبت هذه النخب الدين العداء وحاولت أن تفهمه من منطلق مقاربات جاهزة، ومطارحات نمطية، فوقعت في فخ التقليد والتكديس، على حد تعبير مالك بن نبي، إذ بالإضافة إلى استوردنا للأشياء، ووسائل أخرى لا تنسجم مع بيئتنا الاجتماعية، والثقافية وحاجاتنا الضرورية، انتقلنا إلى استيراد العلوم والمعارف والفنون، التي لا تتماشى مع توجهاتنا الفكرية ومقوماتنا الحضارية، الأمر الذي أوقع المجتمع العربي في كبوة التكديس كما يصطلح عليه مالك بن نبي، والذي اعتبره ظاهرة مضرة في المجتمع العربي،"وهي تظهر حتى في الأفكار، فقبل خمسين سنة نتكاتب ونتراسل في رسائلنا الأدبية والوديّة، فنبتدئ بعد الحمد لله بعشرة أسطر من الديباجات التقليدية، والألقاب ثم نقول والحمد لله أنا بخير، وأرجو أن تكونوا بخير"[7]، وهكذا انطبعت ملامح القصور والعجز والخمول على الوضع العربي والإسلامي، جرّاء التكديس الذي مسّ تراكم الأشياء والأفكار معا، تكديس منتجات حضارة أخرى، عوض بناء حضارة عربية إسلامية، تخضع لمقوماتنا ومبادئنا، وخصوصية ثقافتنا، فالعالمية الإسلامية كما يقول ابن نبي "شرطها حاليا مقاومة القابلية للاستعمار، وتصحيح المسار الحضاري للإنسانية، منطلقه أن ندرك بأن قضية العالم الإسلامي هي قضية بناء حضارة لا تكديس منتجاتها، لأن البناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس"[8]

وفي المقابل، فقد انماز مالك بن نبي بين معاصريه بتصوراته وآرائه حول الدين، ولعلنا نجده هو أوّل من قدّم قراءة نقدية (ابستيمولوجية) للإسلام متتبعا نجاحاته وإخفاقاته على مدار الزمن، منذ بداية رسالة الرسول الكريم مُحَمَّد ﷺ، إلى غاية الحركة الإصلاحية في الجزائر، وهو إذ ينظر إلى الدين ينظر إليه كفكرة حية مطبوعة، لن تجد صلاحيتها إلا من فعاليتها، فهي لا تفقد معنى الصلاحية وإنما هي معرضة إلى أن تكون لا إصلاحية(معطلة) أو ميّتة-مميتة، كنموذج الطرق الصوفية، وهو المثال السيّئ عن الأفكار الموضوعة، فالفكرة الموضوعة عنده لا تكون فعالة وايجابية إلاّ إذا استلهمت خصائص وروح الفكرة المطبوعة (فكرة الوحي)، وهو في كامل قدسيته وطهرانيته بعيدا عن كل مدنس، الذي إن خالط الدّين وتمكن منه يأخذ به إلى عوالم العقل والشهوة (اللّذة) التي حذّر منها، أي من الحضارة إلى ما بعدها .

هكذا جاءت الإستفاقات متأخرة بأهمية دراسة الدّين، وهي تجعل منه تراثا لابد من إحاطته بالدرس الكافي لما له من أهمية، إذ يقول حسن حنفي في هذا الباب:" وعلى هذا فتحليل التراث، هو في نفس الوقت تحليل لعقليتنا الحاضرة، وتجديد التراث هو إعادة تفسير التراث طبقا لحاجات العصر، على أن تجديد التراث ليس غاية في ذاته بل

وسيلة لتطوير الواقع ذاته وحلّ مشاكله، ولا يتّم هذا إلاّ بتحليل البنية النفسية للجماهير، وتحليل بنية الواقع"[9]، وهذا ما نلمسه في عمل مالك بن نبي حين أسس مفهومه للحضارة من وحي مكوناتها، التي استطاع أن يصوغها لنا في شكل عبارة جبرية، تضمنت ثلاثة مقومات:الحضارة= الإنسان + التراب+ الوقت، فالحضارة ما هي إلا حصيلة التفاعل الحاصل بين الإنسان، والوقت، والتراب؛ فالإنسان هو الحامل للفكرة التي يتأهب بها للتفاعل مع التراب والوقت، ليكون الوقت هو الحيّز الذي يتحرك فيه الإنسان في تعامله مع التراب، والأرجح أن يكون التراب هو الكون أو الطبيعة، فهو المجال الذي يتحرك فيه الإنسان عبر الزمن من خلال الفكر لينتج حضارة [10].

ولأنّ مالك بن نبي يفكر بفعالية بعيدة عن التجريد والنمطية، أضاف لعناصر الحضارة عنصرا حيّا ومحركا لها، يقوم مقام الشرارة التي تمزج بين عناصر الحضارة، ليصل بها إلى حد التماهي، والذي مثلّه في العنصر الديني أو المركب الروحي، وكل هذه العناصر والمعطيات، لا تشتغل وإن كانت على أعلى مستوى من الجاهزية، إن لم يكن الدّين حاضرا في نطاق وعيها ولا وعيها، أي أن يكون مرجعيتها الأسمى، والمحرك الأول والأخير لكل فعل حضاري، فمالك بن نبي لا يفهم منطق صعود وهبوط وانحطاط الحضارة، إلا من خلال مدخل الدين،فإن كان نيتشه يقول ما التاريخ إلا جغرافيا من قمم إرادات القوة، فمالك يقول ما التاريخ إلا جغرافيا من قمم الديانات والروحانيات .

ولعل هذا ما دفعه للتساؤل من الناحية النظرية وهو يقول:"كيف يتاح للفكرة الدينية أن تبني الإنسان حتى يقوم بدوره في بناء الحضارة، وبالتالي كيف يتاح لهذه الفكرة ذاتها أن تمدنا بتفسير عقلي لدور إحدى الديانات في توجيه التاريخ"[11] ،ولعلنا نجد إجاباته، عندما حدد لنا تاريخ ميلاد المسيحية ثم نشأتها وتطورها، عندما لامست إنسان الفطرة الإنسان الجرماني، أين حملها وحملته إلى المجد والحضارة، ثم كيف هوى المسلم بعد معركة صفيّن، عندما تخلى عن أهم ميكانيزم عمل به مُحَمَّد ﷺ، ألا وهو ميكانيزم (الإيخاء) بين المهاجرين والأنصار، بين بلال الحبشي وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، ثم ودّع الحضارة أو بالأحرى ودّعته بعد انهيار الدولة الموحدية، بعد أن غرق في بحر الملذات والشهوات وطوفان الشبهات، ليضيف إلى جسمه العليل أسقاما أخرى، تناولها بن نبي في فصل آخر من فصول باثولوجيا العالم الإسلامي، أين أفرده تحت عنوان"القابلية للاستعمار"، فبالرغم من أن الاستعمار كان جهنميا وبربريا متوحشا، إلا أنه أحدث صدمة كبيرة، في وعي وضمير الأمة الإسلامية، وأيقظها كما يقول مالك بن نبي من سباتها العميق، وأتت الاستفاقات على شاكلة حركات إسلامية إصلاحية، حمل لواءها كل من جمال الدين الأفغاني ومُحَمَّد عبده ومُحَمَّد إقبال وحسن البنا، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فبقدر ما كان مالك يستحسن اجتهادات هؤلاء بقدر ما كان ينتقدها ويوجّه إليها الكثير من الملاحظات، إذ "يعتقد مالك بن نبي أنه لو استطاعت الحركة الإصلاحية أن تقوم بتركيب أفكارها، وأن توحد الأفكار الأصول التي توصل إليها الشيخ مُحَمَّد عبده والآراء السياسية والاجتماعية لجمال الدين الأفغاني، لوصلت إلى طريق أفضل من مجرد إصلاح مبادئ العقيدة[12]

إن اهتمام مالك بن نبي بالشأن الديني جعل البعض يتحامل عليه ويصفه بالفقيه، دون أن ينظر إلى إسهاماته الحقيقية وخلفيته النظرية، بل وحتى نوازعه الأيديولوجية ، لكن ما يحسب له خاصة في الظرف الذي عاش فيه، أنه

على غرار بعض المثقفين الذين رفضوا دراسة الظاهرة الدينية، ولم ينتبهوا للأثر الديني في تشكيل الشخصية والهوية الوطنية والقومية في عالم مشحون بالصراع الفكري أكثر من الصراع الاقتصادي، أو النووي أو غيره، لقد رأى مالك بن نبي في الدين المنطلق الأساسي لأي تنمية جادّة، وركيزة مهمة، في بيوت تعصف بها رياح إقليمية عابرة للقارات.

. ابستمولوجيا الحركات الإصلاحية الإسلامية :

قبل الحديث عن كرونولوجيا الإصلاح في العالم الإسلامي كما أرخ له بن نبي، وفهمه من منظوره العام و الخاص في الجزائر، لابد من المرور على النموذج الإصلاحي الذي افترضه مالك بن نبي في منهجية عمل اختارها، فهو في كتابه (شروط النهضة) يشرح لنا كيف نهضت أوربا من غفوتها، ونزعت عنها حجاب القروسطية المظلم، بفضل جهود كل من توماس الإكويني الذي قام بغربلة الثقافة الأوروبية من أعمال المفكر الإسلامي ابن رشد، ورواسب فكر القديس البزنطي أوغيسطين ، حيث ينعت مالك بن نبي هذه المرحلة بالمرحلة بالسلبية، ويتجلى وجه سلبيتها في كل ما قام به القديس أوغسطين وابن رشد، أما المرحلة الايجابية فهي تبدأ بأعمال ديكارت العقلاني، الذي أسس للمنهج التجريبي والموضوعية والوضعية، فلولا هذه الجهود لما عرفت أوروبا عصر الأنوار والمدينة الحديثة والعلوم والمعارف الدقيقة والتكنولوجيا المتطورة، وعندما يطبّق بن نبي هذه المقاييس أو المعايير على العالم الإسلامي، ترشح ذرات سلبية سامت نشاط الحركة الإصلاحية، وممثلاها القويان بتقدير مالك ألا وهما مُحَمَّد عبده وتلميذه الجزائري الإمام ابن باديس، وسنأتي فيما بعد بشيء من التفصيل حول هذين الشخصيتين، اللتين اتخذتا من إصلاح مناهج التدريس في الأزهر والزيتونة منهجا للإصلاح، وإن كان الأزهر الشريف كمؤسسة دينية عرف نقدا كبيرا من قبل مُحَمَّد عبده، أما فيم تعلق بالجوانب الايجابية في العالم الإسلامي، فلم يرشح شيء والسبب أنه لم يعرف ثورة علمية كما عرفتها أوروبا، فديكارت العالم الإسلامي، لم يوجد بعد، وأمر ظهوره مؤجل إلى أن تستوفي كلّ الشروط الاجتماعية والنفسية والسياسية، وخاصة التربوية[13]، وإن كان بن نبي يحذر من نزيف الأدمغة الذي تتعرض له الأمة الإسلامية بفعل عوامل داخلية طاردة، وخارجية جاذبة.

إن بداية النهضة الإسلامية أو الإصلاح الإسلامي كان مع نشاط جمال الدين الأفغاني الدؤوب، فهذا الرجل وإن عرف بصلاحه وحماسته، وامتعاضه من الحالة المزرية التي كان يعيشها المسلمون بسبب سياسات الباب العالي في تركيا، وبعض التيارات الفكرية الإسلامية كالتي ظهرت بالهند، والتي عرفت بمدرسة عليكرة، بقيادة علي خان الذي ادعى النسب إلى الدوحة(الشريفة)، ما كانت أعماله إلا تمييعا للإسلام، فقد رفضه الأفغاني كما رفض مطارحات العلمانيين الجدد في العالم الإسلامي، والذي صنفهم في خانة الدهريين .

من مآخذ بن نبي على الأفغاني أنه جعل المجال السياسي أولويته، في حين كان له أن يجعل من التربية والتعليم أولوية الأولويات مفضله على باقي المجالات الأخرى، أما مُحَمَّد عبده فقد تفطن لذلك وابتعد كثيرا عن السياسة وألاعيبها، وكان همه وشغله الشاغل إصلاح مجال التربية والتعليم والاجتهاد الفقهي والعقائدي، وإن عرف بعلاقته الحسنة مع القنصل البريطاني **"كرومر"**، كما كانت الرسالة الموجهة من مُحَمَّد عبده إلى القنصل، لهي خير دليل على دعم

سياسته الإصلاحية، فقد دعاه إلى ضرورة التسريع في بعض الإصلاحات، التي تمس الحياة والمؤسسات والممارسات السياسية بمصر ودمقرطتها، والتي تضمنت في باطنها تمكين المصريين من تسيير شؤونهم بنفسهم، كما استطاع تلميذ الأفغاني من تأسيس مجلة إصلاحية سماها بمجلة "العروة الوثقى"، وهذا لعزمها على تقوية الدعوة الإسلامية وتعزيز صورتها الحسنة، ولعل مناظرة الشيخ مُحَمَّد عبده مع هانوتو تدخل في إطار تقوية شوكة الإسلام وإجلاء رسالته الحضارية والإنسانية على خلاف ما روج له الاستشراف.

إن ما قام به مُحَمَّد عبده لم يشفع له عند مالك بن نبي كي يمنعه من انتقاده، بل رأى في تركيزه على علم الكلام والمناقشات والحوارات في علم العقيدة الذي دون فيه رسالته الشهيرة (**رسالة التوحيد**) ، موضوعات غير مهمة لأن المسلم في رأيه لا يحتاج من يقول له أنت مسلم، بل يحتاج من يقنعه بفعالية الإسلام الاجتماعية والحضارية [14]، ومن يقول له كلاما يضاهي قول مُحَمَّد لأصحابه، وهذا ما نجح فيه إلى حد ما مُحَمَّد إقبال وحسن البنّا برأي مالك بن نبي، اللذين جعلا من أتباعها ومريديها كثر، بسبب حسن تلقينهم للقرآن وتفسيره على ضوء الاحتياجات النفسية، والرهانات الاجتماعية الآنية، فكان ذلك التفسير يسد فراغا روحيا ألم بقلوب الجماهير العطشى، التي لم تجد في الأزهر ولا الزيتونة كمؤسسات دينية عريقة ضالتها المنشودة

أما بخصوص تجربة الإصلاح الديني بالجزائر، فهي لا تعود إلى ابن باديس لوحده، وإن كان هو أحد وجوهه البارزين، حيث تعود بدايات التفكير الإصلاحي في الجزائر مع شيخين جليلين لقيا في العنت والغبن الذي ألحقه الاستعمار بشعب كامل، لأنه كان يدرك خطورة أن يستيقظ شعب نائم على يدي شيخين جليلين من طراز **صالح بن مهنا وعبد القادر المجاوي**[15]، ليخلفهم من بعد الصنهاجي(عبد الحميد بن باديس)، وثلة أخرى من خيرة علماء الجزائر، الذين تلقوا علوم الدين بالزيتونة والأزهر والشام والحجاز، وعادوا بعدها وكلهم عزم على القضاء على كل مظاهر الأمية والجهل والشرك، المتفشية في أوساط المجتمع الجزائري، ونجحوا في ذلك بشكل كبير، إذ يصف بن نبي هذا وكله انبهار لما آل إليه أمر مدينة تبسة، من حيث نقص عدد الخمارات ومدمني الخمر، وأتباع الطريقة الصوفية (الطريقة الرحمانية تحديدا وهذا ما ذكره في مذكرات شاهد على القرن)، وبعد أن تحولت جمعية العلماء المسلمين إلى قوة ضاغطة داخل المجتمع الجزائري، مقلقة لفرنسا منافسة لمن ارتضوا العمل السياسي، ارتضت هي أيضا اقتحام الحقل السياسي، فكتب مالك بن نبي متحسرا:" وهنا يظهر السبب الذي دعا العلماء إلى أن يسيروا عام 1936 في القافلة السياسية التي ذهبت إلى باريس كأكبر سبب قاد الحركة الإصلاحية الجزائرية إلى أول انحرافها، فبأي غنيمة أرادوا أن يرجعوا من هناك، وهم يعلمون أن مفتاح القضية في روح الأمة لا في أمر آخر، ألم يرجعوا بإخفاقات المؤتمر الجزائري وبتشتيت جمعيتهم نفسها؟؟ وهكذا انتقلت الحركة الإصلاحية على عقبيها، وربما كان عام 1936م في الجزائر هو القمة التي بلغها الكفاح والإصلاح الاجتماعي، وهي نفسها القمة التي هبط منها الإصلاح إلى الهاوية لا قرار لها وكان ذلك قبيل حرب 1939م"[16]

لقد ظل العمل السياسي عند مالك بن نبي قرين السلبية والانتهازية، والمساومات والرضوخ والبوليتيك (boulitique)، كمفهوم أسس له مالك بن نبي من المخيال السياسي الشعبي الجزائري، أما السياسة الناضجة والراشدة والمدروسة فهي عنده قرينة ما يحققه الغرب من انجازات مهمة، كذلك ما قامت به روسيا وصين الوثبة إلى الأمام بصفة عامة، وما يمكن أن نوجزه في عتاب مالك بن نبي على الحركة الإصلاحية في مشارق العالم العربي الإسلامي و مغاربه، أنها اقتصرت على المسجد دون أن تذهب إلى الأماكن العامة، بالإضافة إلى ذلك يرى بن نبي أن مشكلة الإصلاحيين، تتمثل أساسا في القطيعة بين أقوالهم وأفعالهم، إذ بهذه الطريقة يتحول القول إلى هذر يهدم الفعل أولا معاني القول وأكثر من ذلك أنهم لا يستمعون إلى النقد ولا يقومون بنقد ذاتي من شأنه التقويم والتقييم[17]، والأهم من هذا وذاك، أن الحركة الإصلاحية وجهت كل أجندتها في محاربة الاستعمار وألاعيبه الماكرة ، إلا أنها لم تلق بالا لأمراض قابلية الاستعمار، والتي تشكل الخطر الأعظم عند بن نبي، فأيّ شعب من الشعوب وأيّ أمة من الأمم لا تستعمر، إلا إذا كان لها القابلية التامة للاستعمار، وهو يقول في هذا الشأن:"فقد تمت المحافظة على ذائقة القيم الإسلامية، أو أعيد إنشاؤها لمواجهة سيطرة الغرب الثقافية عليه في الوقت الذي كان يواجه فيه الاستعمار على هذا النحو كان يحتفظ بمعطيات القابلية للاستعمار"[18]، وكأن بن نبي يقول بطريقة أخرى بينما كانت الحركة الإسلامية الإصلاحية تحاول إخراج الاستعمار من الأوطان بقى يستوطن النفوس والضمائر فإذا ما أخرجته يد الإصلاح اليمنى إعادته يد القابلية للاستعمار باليسرى .

الخاتمة:

وتبقى إسهامات واجتهادات مالك بن نبي أبعد ما تكون عن الإحاطة الكاملة بها، وما محاولتنا هذه إلاّ من قبيل استقراء أفكاره النقدية التي ارتسمت في جل أعماله الفكرية التي أوجزت لنا فكره النقدي والتفكيكي لمشكلات الثقافة العربية وعاهات العقل العربي، وإن كنا لا نشك في الأهمية النظرية لمشروعه الفكري والنقدي، وبمحدودية فرص تحقيقه في العالم العربي، إلا أنّنا اكتفينا بمساهمته التي ضخت جرعات إيجابية في المنظومة الفكرية للثقافة العربية الإسلامية وأمدتها بنفس جديد، لو أخذناه بمحل من الجدّ و فهمناه فهم استثمار.

الهوامش:

[1]- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر-دمشق 2000م، ص 88

[2]- مالك بن نبي، تأمّلات،بإشراف ندوة مالك بن نبي. دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر دمشق، 2002م، ص 146

[3]- ينظر: مالك بن نبي، تأملات، ص 149- 151

[4]- مالك بن نبي، تأملات، ص 151

[5]- المرجع نفسه، ص149

[6]- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة مُحَمَّد عبد العظيم علي، دار الفكر، ص 40

[7]- مالك بن نبي، القضايا الكبرى،ط1: 1991، دار الفكر-دمشق، ص167

[8]- مالك بن نبي، تأملات، 147

[9]- محمود أمين العالم، الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ص76

[10]- عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، كتاب الأمة، الطبعة الأولى:سبتمبر أكتوبر 2012م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة.ص 47

[11]- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر:عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الوعي- الجزائر، الطبعة:11، 2012م، ص 69

[12]- مولاي الخليفة المشيشي، مالك بن نبي دراسة استقرائية مقارنة، معالم المنهج في تأصيل العلوم الانسانية لمشروع (مشكلات الحضارة)، الطبعة الأولى 2012م، دار النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ص32

[13]- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر:عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، ص86،87

[14]- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر-دمشق، الطبعة السادسة 2006م ، ص81-83

[15]- المرجع نفسه، ص25

[16]- المرجع نفسه، ص29

[17]- المرجع السابق،ص 81-82

[18]- مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الوعي(الجزائر، الطبعة الأولى: 2013م، ص48

قائمة المصادر والمراجع:

[1]- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر-دمشق 2000م

[2]- مالك بن نبي، تأمّلات،بإشراف ندوة مالك بن نبي. دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر دمشق، 2002م

[3]- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار الفكر

[4]- مالك بن نبي، القضايا الكبرى،ط1: 1991، دار الفكر-دمشق

[5]- محمود أمين العالم، الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، دار الثقافة الجديدة، القاهرة

[6]- عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، كتاب الأمة، الطبعة الأولى:سبتمبر أكتوبر 2012م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة.

[7]-مولاي الخليفة المشيشي، مالك بن نبي دراسة استقرائية مقارنة، معالم المنهج في تأصيل العلوم الإنسانية لمشروع (مشكلات الحضارة)، الطبعة الأولى 2012م، دار النايا للدراسات والنشر والتوزيع=

[8]- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر-دمشق، الطبعة السادسة 2006م